

وجاهلهم بالمهم على اصلاح البلاد وترقية الامة وقد سرنا ما قلناه الجرائد من عهد قريب من تكريم مولانا أمير المؤمنين وكبير سلاطين المسلمين بهدايا نفيسة من الخيول الجياد وغيرها ارسلوا الى مولاي عبد العزيز سلطان مرا كش فصي ان تكون هذه الهدية فاتحة الاطراف و بداية الانعاف

## القوة والقانون \*

﴿ من مقالات الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده الشهر ﴾

قبل الكلام على خصائص هذين الركنين لهيئة الوجود الانساني نريد أن نبين حقيقة كل منهما ليكون انقاراً على علم بما يلقي اليه بمد فلا يخطئ الغرض ولا يجاور المرض ولا تلحقه شبهة توقعه في ظلام الخبرة وغيب التردد — أما القوة فلا نعني بها الا ما يستعمل لجلب الملائم ورفع المكروه سواء كان من شخص واحد أو جماعة متألفة أو شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، وسواء كانت آلة تحصيل الملائم ورفع المصاوم هي اقوة البدنية مجردة عن سواها كما تراه في السباع الضارية والحيوانات الكاسرة أو هي منضمة الى السيوف القاطعة والآلات المحركة وغير ذلك مما يستعمله الانسان في مواطن الغلبة والسيال

أما القانون فهو التاموس الحق الذي ترجع اليه الامم في معاملاتها العمومية وأحوالها الخصوصية وهيئاتها النفسانية أعم من أن يكون متعلقاً بروابط المالك وعلاقاتها أو منوطاً بالسياسة الداخلية، كالادارة المدنية والتدابير المنزلية، أو باحثاً عن الاخلاق الفاضلة وما ينبغي أن يتحلى به الانسان منها، وما يجب أن يتعد عنه من اضرارها، وسواء كان في امة واحدة أو أم متعددة

وهاتان الحقيقتان هما موضوع كلامنا الآن اما القوة فكانت شرعة الأمم الغابرة والشعوب السالفة وقت ان كان الانسان جبلي الطبع لا يمتاز عن غيره من

أنواع الحيوانات الا بالفصل المميز أعني قابلية النطق المجرد عن نور المعارف وشارع التمدن فكانت له الحاكم الفصل يرجع اليها في تحصيل غرضه ونوال مطلوبه وباختلافها وتفاوتها اشتدادا وضعفا وتقدما وتقهرا كانت تختلف الأمم وقتئذ في الشرف والضعف والسطوة والفقير والغني من غير نظر الى شيء من وسائل تلك الوجوه معها كانت طرائقها فكان الرجل يمتاز بين قومه بصفة الاقدام والجرأة وكثرة السلب والنهب والبنك والفك وكانت القبيلة التي هي أشهر القبائل في هذه الصفات تعرف بالمجد الاثيل والشرف الباذخ والمكانة العالية فيدين لها مجاوروها ويخضع لسطوتها كل أمة قرع اسماعها ما هي عليه من علو المنزلة وشدة الانفة وقوة الشم ونساق اليها الهدايا من نخوم الاقطار وشاسع البلدان وتأنيبها الفئام أفواجا يقتادها رجالها الابطال من ساحات الصدام والنزال ولم تنزل الا زمان الغابرة محكومة بسطان القوة قلب الامم على جمر الخوف والاضطراب وتضرب بصولجانها جرائم القلوب الضعيفة فتلقي بها في مهاوي الذل والهوان حتى خضعت لها الامم ودانت لها الشعوب وصارت هي الديان المسيطر على كل شيء فاذا تمت لقوم تبعها السلطة التامة والحكم المطلق فيتسلطون بقدر مكنتهم على ما شاء الله من الشعوب والقبائل ويتخيرون واحدا منهم ساطانا أو ملكا قدامتاز بالتهور والجرأة وجلالة المنظر والنضارة يملكونه زمام الحكم والسلطة ثم ينتخبون من عشائهم رجلا يمدونهم حفاظ الملك وأر باب النجدة والنصرة على المدو والهدو لتتح الملك والامصار ويتسلطون بهؤلاء على بقية من هم تحت سطانهم بالرهبة والقساوة لئلا يتخلصوا من ربقتهم فيذعنون للمكهم قهرا لا طوعا وينظرونه مقتا لاحبا ويحملون اليه الخراج وهم صاغرون وذلك دون مراعاة طرق عادة أو أحكام مؤسسة على أصول المساواة واستعمال الشفقة والمرحمة بل بحسب ما تقتضيه القوة التي سفكت الدماء وذلت الشعوب وانتهكت حرمت الامم وسجنت حرية الانسان في مطمورة الرق والاستعباد ،

هذا ما ولدته القوة في تلك الاعصار الخالية التي كانت مشحونة بظلمات الجهالة مسرولة بجلايب الغباوة، مطمورة في بحار الوحشية، وما أظن تلك الشريعة المشار اليها كانت خاضعة بأمة من الامم، أو صنف من اصناف البشر، بل كانت عامة بين أبناء

الانسان على اختلاف أجناسه وتباين مواطنه ، فكنت ترى عامة القبائل وكافة الشعوب مقسمة الى ممالك متعددة ، وإمارات متباينة، تجول فيها يد القوة، ويحكمها مجرد الرهبة، ويطويها الخوف وينشرها الفزع، ويشملها الاضطراب والاختلال، وتبادها أيادي السلب، يبيت ضعفاؤها غير آمنين على أنفسهم ويصبح أقرباؤها غير مطمئنين على حياتهم، فانبعثت في قلوب هؤلاء الأوزاع الذين ضربتهم يد السطوة بعصي القوة علة الضعف، ودبت فيها سخائم الحقد، فاختلفت الاغراض وتباينت المشارب وتفرقت القلوب وتنوعت وحدة الانسان الحقيقية الى أنواع لا يجمعها سوى جامعة الحيوان الناطق وتبدلت فطرته السلمية الى أخلاق لا مناسبة بينها وبين جوهره المقدس الشريف ،

وقد تمكنت سطوة القوة في قلوب أولئك الشعوب وارتسنت صورها في مخيلاتهم ، وانسجبت معانيها الى ذاكراتهم، وصارت محفوظة في خزانة حافظاتهم، قائمة نصب أعينهم، حتى توهموها مقلب القلوب والأحوال، حافظ القوى والا كوان، اليها مرجع الحوادث ، وعليها تدير النوازل والكوارث ، فاحتسبوا المدبر في المكونات بأجمعها وصوروا تماثيل على صور مختلفة، وأنواع متباينة، تشير ظواهرها الى القوة وتؤدي هيأتها معاني المظلمة والسطوة، ووضعوها في أما كن عبادتهم ليؤدوا لها فرائض السجود والركوع ، ويقربوا اليها القرابين من نوع الانسان وأنواع الحيوان ، وهذه أصنام العرب والصين والمجم وآثار قدماء المصريين ، وآلهة اليونانيين المصنوعة على أشكال الحيوانات المادية، والملوك العاتية، يشرح التاريخ أحوالها فلا داعي الى الاسباب في تفاصيل شؤونها، ومن تتبع تواريخ هذا الانسان الوحشي بامعان وتبصر ظهر له ان القوة هي التي دوخت قوى الانسان السلمية وبددتها وأحدثت به من القبائح ما أحدثت ولولا أن القانون كسر سورنها وذال صعوبتها لما أشرق نور الحق على صفحات الوجود ولا تمتع الانسان في الأزمان الأخيرة بلذة الراحة والسعادة فالحق للقانون لا للقوة

و فيما الانسان تائه في أغوار الاستعباد، في هاتيك الازمنة أزمنة القوة والاستبداد، والجور والعيث والعار، ليس له حق يسان، ولا عرض الا ويهتك ويهان، اذ أشرفت

عليه قرائح الذين جادت بهم مراحم الفضل ، وعرفوا بمذاهج الخير ، فأبصر من  
 ملاح أفكارهم ما يهديه الى سبيل الرشاد ، ويوقظ فكرته الى التماس الصواب من  
 أبواب السداد ، فلم أن القوة هي منحة جليلة ، ونعمة كبيرة ، يستعين بها على حاجاته  
 الضرورية ، ولو ازم معيشته المرضية ، قد غرزاها الله تعالى بالاتحاد والاتلاف حتى اذا  
 عجز الفرد الواحد عن الاطاعة له عليه من نفائس المطالب ، وجلال الرغائب ، استعان  
 بشيرته ثم بقيته ثم بأمته التي يجمعها دين أو ملك ثم بجميع أفراد نوعه ، وان القوة  
 اذا لم تكن على قانون لا تمدها ، وخط لا تتخطاه ، بأن استعملت على أي وجه ، وفي  
 أي زمان أو مكان ، لا يتأثر ثمرتها المهربة ، وغايتها المطالبة ، فأسف على ما كان ، ونزع  
 من رقدة النقلة يحاول لها النظام المبرعنة بالقانون ، فكان نورا يهتدي به وقائد ارشيدنا  
 يسلك بالانسان الى ما أهله له من الكرامة والنجم ، فاتبع سبيله المتدون ، ومال عن  
 سننه الضالون

أما الانسان الذي ساعده التوفيق بالانقياد لاحكام القانون فانه حفظه باطنا  
 وظاهرا ، وتمسك به غائبا وحاضرا ، حتى صار ركنا من لوازم حياته ، وعدة لمقاصده  
 وغاياته ، وملجج لسانه في بكرة وعشياته ، الى ان عرف به واجباته الحقوقية وفرائض  
 معيشته العمومية والخصوصية ، وأمن به من مصائب الظلم ونوازله ، والجور وغوائله ،  
 واطمأن به على نفسه وعرضه وماله ، فسكن قلبه بعد اضطراب ، وقرت عينه برياض  
 الامن والامان ، وتولد فيه أمل حمله على ادمان العمل فأعمل فكرته انظمة ، وأجرى  
 حركته الرائدة ، ولا زال يرتاد مواطن العلم ومعاينه ، ويقتنص بحباله الاستكشاف  
 كل فائدة ، ويستعمل قواه في حل المبهات ويستطلع بصيرته ما خفي من مجهول  
 الكائنات ، الى ان هداه العلم الى ممرض الاختراع والابداع ، فطار على جناح  
 البخار بدل الشراع ، واستخدم النضار ، لقضاء الاوطار ، واستعمل البرق على بعد  
 الديار ، رسول الاخبار ، وجعل المدافع والقنابل ليبد بها مضاديه ، ومآنديه ، وانغمس في  
 النجم مطعما ومشر با وملبسا ومسكنا ، الى غير ذلك مما اتيج له من محاسن الحضارة ،  
 ولطائف الرفاهة والنضارة ، ولا زال يضرب في تخوم البلاد ويدلل بقوة عزمه اخلاق  
 الهاد الى ان أصبحت البسيطة في قبضة زمانه ولا غرو فان فائدة الاتحاد والاتلاف

وباعته الوفاق لا الاختلاف وهو الآن كما بدأ يحافظ على القانون بانسان مثله ،  
ويصرف في حراسته ما يدخل تحت قوته ، فانه ملاك سعده ، وأساس مجده ،  
ومتشي جده

أما الذي ضرب عن القانون صنفاً ، وطوي عنه كشفاً ، فهو هو على رذالة أخلاقه ،  
وبساطة أفكاره ، يصبح مضنة تحت اضراس الظلم ، ويمسى كرة لصوجلان البني ، فليحي  
صاحب القانون على بساط النعمة الهني

فيا أيها الذين ينحرفون عن القوانين و يعدلون عن طرق النظمات لفرور وقي  
ارفقوا بانفسكم واعتبروا بمن يماثلكم في الصورة الانسانية وانظروا اليهم كيف عظموا  
القوانين ورفعوا شأن الحقوق فأصبحوا في غاية من القوة والعزة فانهم ضوا لمجاراتهم  
في الصدق ان كنتم تعلمون واياكم والتماذي فيما نسوله النفوس من الاعتذار بظواهر  
من السلطة فلأيام تغلب وتقلب لكن صراط الحق واحد وسالكه لا يضل ان عثر  
يوما استقام أعواما اما طرق الأعوجاج فهي وعرة خطيرة كثيرة الفوائل سالكم  
معارض لمدير العالم سبحانه وتعالى في أحكامه فانه عز شأنه قد أقام الكون بنظام  
الحكمة ورتب لكل شيء حدودا هي سور بقاءه وسياج دوامه فان خرج عنه انحدر  
الى مهاوي العدم والفناء ومن تأمل الكون الاعلى وما فيه من الكواكب والشموس  
والاقمار ثم نظر الى العالم الاسفل وما احتوى عليه من نبات وحيوان يشهدني الجميع  
لكل نوع منها قانونا خاصا في سير وجوده تقوم البراهين القاطمة على انه لو انحرف  
عنه لحكم عليه سلطان القهر الالهي بالعدم والاتقلاب وانه يباهر حكمته قد جعل للهيئة  
الانسانية حدودا عامة هي الشرائع وقوانين الآداب التي تحدد سير الانسان في  
معيشتة خلاصة نفسه أو معاملته مع غيره وقد اودعها العلماء والحكماء بطون كتب  
التهذيب والتربية البشرية، بعد ان نطقت بها الشرائع الالهية، وقد شهدت التجارب  
بالاخبار المتواترة، عن الأمم الماضية والمشاهدة الحالية في الاوقات الماضية ، ان من  
تخطى حدود هذه الحقائق رماه القهر الالهي بسهم لا يخطئ ، مرماه فاقانون هو سر  
الحياة وعماد سعادة الامم وان القوة لا تأتي بشرتها الحقيقية الى اذا عضدت باتباع

الشرع والقانون العام الذي أقر العقلاء بوجوب اتباعه فكيف يصح لذي شوكة أو صاحب سلطة أن يفتر بعد رويته هذه البراهين الباهرة بقوة ، أو يعجب بصوته ، ويدع الأمور لأرادته ومشيته، ويزدري القانون من حفظ القوة ونمو الثروة في من هم تحت امرته، فيفعل ما تسول له نفسه ، ويأتي كل ما يسوقه اليه حسه ، فيسري الأهمال في طبقات رجاله، ويجارون حاكمهم في عوائده وأخلاقه، وتصير الأموال لديهم مباحة، والحقوق مبتذلة، والأعراض مشهكة، ووسائل الربط والضغط معطلة ، وعقد المواثيق والعهود محطلة ، فيكثر فيها وليه غوائل الخسران، وتتمو به جوائح البهتان، حتى تصير أفراد المحكومين اخلاطا رعايا لافرق بين كبيرهم وحقيرهم الأبوقة الشهوات، والتمكن من وسائل اللذات، مع توافق في الفطرة، وتشابه في الغريزة، ولا يطول عليهم ذلك العهد حتى يصبح الحاكم محاطا بحجم غفير من الغرماء يتجاذبون به بايد طالما تقدمته من خزائنها ما ظنه نورا يسيرا في جانب اسرافه وتبذيره وهو على كاهل الأهالي حمل ثقل العبء لا تقدر أن تقله وتحمي عمارة البلاد تنعي محاسن صحتها أو بابها طوامس المعالم مظلمة الاطراف ، ليس فيها سوى نصاب البوم وهمس الهوام ، وحينئذ لا تسلم عن العاقبة فانها أسر ونهب وبئس المآل

ذلك ما يولده الغرور بالقوة، والأعجاب بالسطوة، وترك القانون الذي عليه سعادة العباد، وخصب البلاد، فإذا أرادت تلك الأمة التي تصرف فيها ذوو البغي والغرور على خلاف القانون ان تعيد لها مجدها الأثيل وعزها الأول فلا بد لها من إعادة شأن القانون ، فتشيد منه مآدمته يد الغرور، وبددته سطوة الفجور، وتأخذ الوسائل النافعة لاستمالة قومها الى التمسك بمرامه، ومتابعة رشده وهداه، ولاتبارح الخيل والتدابير لهذا الغرض وما كان اغناها عن الإصلاح بعد الأفساد والتعمير بعد التخريب ولكنها باعت القانون بثمن بخس فكان جزاؤها أن تشتريه بنفسها الغريزة ودماؤها الشريفة حيث عرفت ما هي القوة وما هو القانون ولنا في هذا الموضوع كلام يأتي بعد أن شاء الله تعالى

( المآر ) ان مباحث هذه المقالة من « علم الاجتماع » الذي يستمد من علم

التاريخ وقد جرى فيها مولانا الاستاذ على نهج السداد بجعل الكلام فيها عاما في القوانين سواء كانت وضعية أم سماوية لان خلط الفنون الفلسفية وغيرها بالدين الذي جرى عليه المسلمون أولاً أضرب هذه الفنون كما أضرب بالدين كما يعلم ذلك من النظر الدقيق في التاريخ ولا شك ان النسبة بين سلطة القوة وسلطة القانون وان كان وضعيا هو عين ما ذكره الاستاذ ، وأما كون الحكم بالقانون الوضعي غير مرضي لله تعالى ولا مؤد لسعادة الآخرة فهو ليس من مباحث هذا الفن واعتقاد المسلمين فيه معلوم وقد ألمع إليه الاستاذ وأشار إلى تعظيم شأن الشريعة السماوية

### حجة ناهضة وشبهتها راحضة

من عذيري من قوم لا يكادون يفقهون حديثا ، يرون القبيح حسنا ويحسبون طيبا خبيثا ، يهيجون على من قال الحق ، ويحتمون على من نطق بالصدق ، وأما الاعمال فقيمتها عندهم بحسب تسميتها ، لا بحسب حقيقتها ، فاذا سما الرذيلة فضيلة والمنكر معروفا والفجور برا والفسق طاعة والكفر إيمانا فتمتظم هذه الاشياء واعتبارها يكونان عندهم بمقدار ما تستحق مفهومات هذه الاسماء في الاصل كما ان الجاهل منهم يفرح ويسر إذا سمي عالما أو أطلق عليه لفظ الأستاذ ونحوه والغر الاهبل يتبجح بلقب يك أو باشا والدعي يفتخر بكلمة السيد الشريف ، وهكذا قد جارت علينا مملكة الالفاظ حتى جعلت بيننا وبين الحقائق سدا منيعا لا ندري مني يدك أو يخرق ،

انحرف المنتسبون لطريق التصوف عن هدي سلفهم الصالح حتى صاروا معهم على طرفي نقيض ومع ذلك ترى العامة تخضع لهم لان الملاء يقرونهم على ما هم فيه ويحترمونهم على مقدار مظاهرهم الدنيوية وقد كان الملاء من قبل واقفين بالمرصاد لاهل التصوف الصادقين حتى اذا آنسوا منهم انحرافا بقول أو عمل أقاموا عليهم التكبر وسلطوا عليهم الحكم يجلدون ويسجنون بل يصلبون ويساخون فأين صوفيتنا من أولئك الصوفية وعلماؤنا من أولئك الملاء ؟ الحمد لله قد بقي عندنا من